



جامعة ديالى
كلية الفنون الجميلة
قسم الفنون السينمائية والتلفزيونية

إخراج الفيلم الوثائقي

إعداد

د. نبيل وادي

الفصل الأول

خصائص الفيلم التسجيلي

ليس من أهداف هذه الدراسة تتبع نشوء مصطلح الفيلم التسجيلي تاريخياً، ولا الخوض في مجال التعريفات الإشكالية الكثيرة التي وضع لها المصطلح منذ اختراع السينما في فرنسا على أيدي الأشخاص لومير عام ١٨٩٥ .. ومع ذلك لا بد من التوقف هنا مع أمرين هامين، لما لهما من صلة مباشرة بعنوان هذا الكتاب وموضوعه الأساسي :

الأمر الأول: يتصل بمسألة التداخل في المعنى بين مصطلحي الفيلم التسجيلي والفيلم الوثائقي كترجمة للمصطلح الانكليزي المعروف بـ Documentary film .. ونظراً لأن الأهمية الأولى المفترضة لهذه الدراسة تتعلق بجوانب تأسيس فكرة الفيلم وطرق معالجتها وتتفيدها، فقد فضلتنا ألا نتعامل مع هذا التداخل بين المصطلحين من جانبه الإشكالي.. بل من الجوانب المشتركة التي تسمح بإمكانية إطلاق المصطلحين على مدلول واحد.. وبهذا لا يكون ثمة فرق يذكر بين الفيلم الوثائقي، والفيلم التسجيلي ضمن صفحات هذا الكتاب حسرا ..

أما الأمر الثاني: فيتصل بالتعريف الذي وضعه الناقد والمخرج الانكليزي (جون جريرسون John Grierson) لمفهوم الفيلم التسجيلي السينمائي

عام ١٩٢٦ .. وهو التعريف الذي يمكننا اعتباره أحد الأسس التي نبني عليها هيكلية هذا الكتاب .. وذلك من منطلق أنه الأقرب إلى مفهوم الفيلم التسجيلي التلفزيوني في أيامنا ..

يعرف "جريرسون" الفيلم التسجيلي السينمائي (اختصاراً) بأنه "المعالجة الخلاقة للواقع" .. فإذا ما سحبنا هذا التعريف على الفيلم التسجيلي التلفزيوني بمفهومه المعاصر / كعمل إعلامي إبداعي / نجد أنه يقوم على ركيزتين أساسيتين :

الركيزة الأولى : هي الواقع الموضوعي الذي يتجلّى في :

١ - **الطبيعة**: بكل مكوناتها، وعوالمها، وظواهرها المرئية والمسموعة، الحية والجامدة، الثابتة والمتحركة.. ومنها مثلاً: الجبال - الوديان - السهول - الرياح - البراكين - البحار - الأنهر - الغابات - النباتات.. إضافة إلى عوالم الحياة البرية والمائية بما فيها من حيوانات، وطيور وحشرات.. إضافة أيضاً إلى عوالم الكائنات الدقيقة غير المرئية بالعين المجردة كالخلايا الحية، والجراثيم، والفيروسات...

٢ - البيانات الاجتماعية والمدنية .. وأهم تجلياتها :

أ - **الحرك الاجتماعي الإنساني**: على كافة المستويات.. السياسية، والثقافية، والدينية، والاقتصادية، والعلمية، والفنية، وجميع أنماط الحياة اليومية في إيقاعها العادي، أو الطارئ..

ب - **العادات، والتقاليد، والأعراف، والقيم السائدة في المجتمع.. وما يقف خلفها من معتقدات مادية، أو دينية، أو أسطورية ..**

ج - **العمران**: بكل وظائفه الخاصة وال العامة، المدنية منها والدينية، السكنية منها والاقتصادية.. وبكل طرزه وأنماطه، الحديثة، والتقلدية والتاريخية... وغيرها.

٣ - التراث الإنساني: بكل وجوهه ومظاهره الحياتية، العادبة منها والإبداعية .. ما غاب منه وما بقي .. وما هو مستمر في تجليات الحياة الاجتماعية والثقافية الراهنة ..

٤ - الواقع الأثرية والتاريخية: وما يجري فيها من أنشطة في مجالات البحث والتنقيب والترميم ... وغيرها.

٥ - أنماط السلوك الإنساني الفردي: في كل حالاتها، السوية منها والمرضية، وفي كل المراحل العمرية للإنسان (الطفولة – المراهقة الشباب – الكهولة – الشيخوخة) .

الركيزة الثانية: هي طريقة معالجة الواقع الموضوعي تلفزيونيا .. أي إعادة تنظيم مادة هذا الواقع من خلال التصوير، والмонтаж، والتعليق والميكساج.. وبالتالي تقديم هذه المادة للمتلقى بأسلوب فني إبداعي يعكس رؤية الكاتب والمخرج، وبما يحقق الأهداف المنشودة ..

من كل ما تقدم يمكن تصنيف خصائص الفيلم التسجيلي التلفزيوني ضمن مجالين :

المجال الأول: ويشمل الخصائص الحسية المتعلقة بالهيئة الشكلية (السمعبصرية) للمادة التلفزيونية Form .

المجال الثاني: ويشمل الخصائص الإدراكية (العقلية والعاطفية) المتعلقة بالمحتوى، أو المضمون Content .

* **الخصائص الحسية (السمعبصرية) للفيلم التسجيلي Form :**

تصل المادة التلفزيونية المعروضة على الشاشة إلى المشاهد عبر حاستي البصر والسمع.. ويستمد الفيلم التسجيلي التلفزيوني خصائصه السمعبصرية من المكونات الأساسية الثلاثة للتلفزيون كوسيلة إعلام

جماهيرية.. وهي: الصورة، والصوت، والحركة.. وستتوقف مع كل من هذه المكونات مفصلا حسب درجة أهمية كل منها :

أولاً – الصورة :

يتسع مفهوم الصورة التلفزيونية (بالمعنى العام) ليشمل كل ما يدركه المشاهد عبر شاشة التلفزيون عن طريق حاسة البصر .. أما بالمعنى المباشر فيمكن تعريف الصورة التلفزيونية بأنها الوحدة البصرية الأساسية التي تضم عناصر مرئية في حالة ثبات ضمن إطار محدد وثابت Cadre .. أي أنها مماثلة تماماً للصورة الفوتوغرافية .. لكن ليس المطبوعة على الورق، بل الموجودة على شريط الفيلم الفوتوغرافي .. وبهذا يكون الفيلم التسجيلي (التلفزيوني أو السينمائي) من الناحية المرئية ليس إلا شريطاً يحمل عدداً كبيراً جداً من الصور ذات الكوادر المتساوية والمتتابعة بانتظام .. والتي تمر / حين عرضها أمام العين / بمعدل ٢٤ صورة في الثانية الواحدة .. وهذا ما يجعل عناصر الفيلم تبدوا وكأنها متحركة ..

وبين المعنى العام، والمعنى المباشر للصورة التلفزيونية درجة العادة أن يستخدم مصطلح **اللقطة Shot** كتعريف للحالة التي تبدأ مع انطلاق الكاميرا في التصوير، وتنتهي مع توقف الكاميرا عن التصوير.. وهو تعريف مستمد من المفهوم السينمائي للقطة ..

غير أن هذا التعريف / بالرغم من أهميته / يبدو قاصراً أمام مصادر الصورة التلفزيونية في أيامنا التي تتجاوز وظيفة الكاميرا لتشمل مثلاً الكمبيوتر، وجهاز النقل أو التحويل (السويتشer Switcher).. وهي مصادر هامة للصور التوضيحية، والخلفيات البصرية، وتقنيات تحريك الصورة لزيادة جاذبيتها، أو التعبير عن فكرة معينة .. وهنا تدخل عملية المونتاج لتلعب دوراً حاسماً في تحديد مفهوم اللقطة التلفزيونية من حيث أنها تعبّر عن المساحة

البصرية التي نشاهدتها على الشاشة دون قطع cutNo .. فإذا ما حدث القطع Cut (عبر المونتاج) بدأت اللقطة التالية .. وهكذا حتى بلوغ نهاية الفيلم ..
وبناءً على التعريفين السابقين يمكن تصنيف اللقطات في الفيلم التسجيلي التلفزيوني حسب ما يلي :

١ - **اللقطة الواقعية**: وهي التي تهدف إلى تصوير الواقع الموضوعي وتحاول التعبير عنه كما يظهر للعين المجردة السليمة .. كأن تصور مثلا شارعاً، أو سوقاً، أو حديقة، أو سيارة، أو مجموعة مباني، أو مجموعة مشاة، أو قطبيعاً من الأغنام، أو الذئاب ... الخ .

ويمكن تقسيم اللقطة الواقعية بصرياً إلى قسمين :

أ - **العنصر الأساسي في اللقطة**: وهو العنصر، أو مجموعة العناصر المستهدفة من عملية التصوير مباشرة.. ويمكن أن تشمل مجموعة من الأفراد دون تمييز مثل: مجموعة من الناس في سوق، أو رتلاً من السيارات في طريق، أو قطبيعاً من الجمال في صحراء ... الخ .. كما يمكن أن يكون العنصر الأساسي فرداً محدداً مثل: لقطة لنمر في غابة أو لقطة لسفينة في بحر، أو لقطة لفلاح في حقل زراعي ... الخ ..

ويمكن أيضاً أن يكون العنصر الأساسي جزءاً تفصيلاً معيناً من إنسان، أو جماد، أو حيوان .. كأن يكون رأس النمر مثلاً، أو عينيه أو مقدمة السفينة، أو شراعها، أو يد الفلاح وهو يقطف الثمار عن شجرة ... الخ.

ب - **العناصر الثانوية في اللقطة**: وهي مجموعة العناصر المحيطة بالعنصر الأساسي والتي تظهر ضمن إطار الصورة دون أن تكون مستهدفة مباشرة من عملية التصوير مثل: الأشجار المحيطة بالنمر، أو مياه البحر والأمواج والقوارب المحيطة بالسفينة، أو الحقل الزراعي المحيط بالفلاح بما فيه من أشجار، ونباتات، وحيوانات أليفة .. الخ

٢ - **اللقطة التوضيحية**: وتشمل جميع العناصر البصرية التي تساعد في شرح الفكرة الواردة في التعليق .. ومنها مثلا:

أ - الخرائط: مثل خرائط القارات والدول والمدن .. وتساعد في إظهار موقع المكان المقصود جغرافياً، أو بيان المسافات بين موقع وأخر .. مثل: بيان مسار نهر النيل في شرق أفريقيا، أو بيان موقع مدينة دمشق بالنسبة لسوريا، أو موقع القلعة بالنسبة لمدينة حلب.. ويمكن أن تزود الخرائط بعناصر متحركة عبر تقنيات الكمبيوتر مثل السهام، والنقاط المضيئة، والرسوم الخطية ... وغيرها .

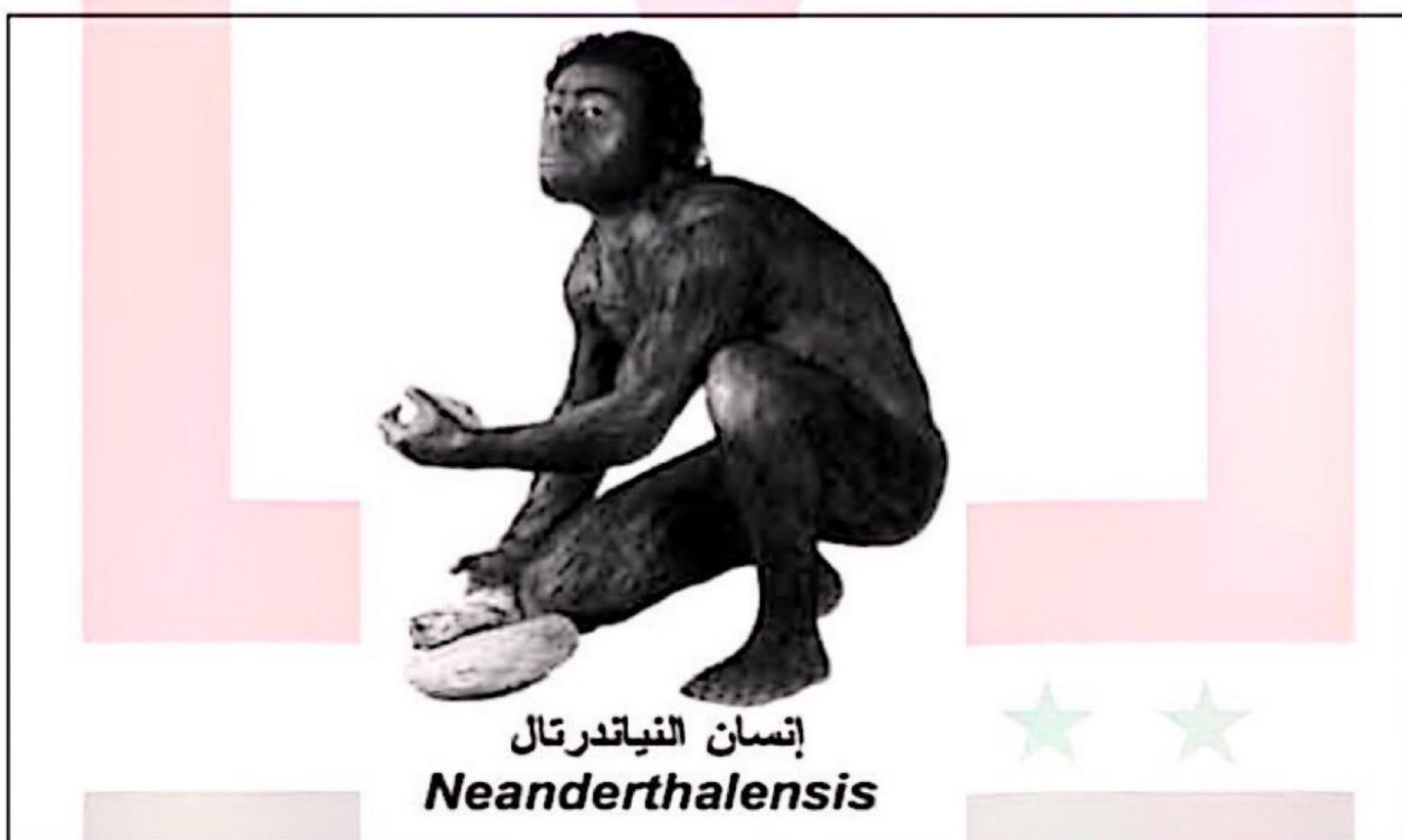
ب - المخطوطات: وتشمل المخطوطات الطبوغرافية والسياحية والبيانية والهندسية... وغيرها، ومنها مثلا: خطأ بيانياً لارتفاع نسبة الولادات، ومخططاً طبوغرافياً لجبل قاسيون في دمشق، ومخططاً هندسياً لكنيسة القيامة في القدس ... الخ.

ج - المجسمات: وهي أشكال مصغرّة بنسب مئوية معينة للأصول الموجودة فعلاً بشكل كامل، أو بشكل جزئي، أو كانت موجودة افتراضياً.. ومنها مثلا: مجسم الجامع الأموي بدمشق، الموجود حالياً في قاعة استقبال الزوار، ومجسم قصر الحير الغربي الموجود في متحف دمشق الوطني كما في (الشكل ١).



الشكل (١) مجسم مصغر (ماكيت) لقصر الحير الغربي موقع القصر في بادية الشام

د - الرسومات: غالباً ما تكون صوراً خياليةً افتراضيةً يتم رسمها بناءً على ما تتوفر من معلومات .. مثل: الصور الافتراضية لشخصيات تاريخية قديمة.. كالملوك، والقادة، والشعراء... وغيرهم.. أو الصور الخيالية لإنسان العصر الحجري ، كما في (الشكل ٢).



(الشكل ٢)

٣ - اللقطات التعبوية: في بعض أنواع الأفلام التسجيلية يندر أحياناً توفر مادة بصرية كافية ومناسبة لموضوع الفيلم .. منها مثلاً الأفلام التي تتحدث عن حياة بعض الشخصيات التاريخية وما ترتبط بها من أحداث مثل الأباطرة، والملوك، والقادة .. أو بعض الشخصيات العلمية التي كان لها آثار كبيرة في مسيرة تطور البشرية مثل العلماء، والمخترعين والرحالة المكتشفين... الخ .. وهذا ما يدفع أحياناً بعض الكتاب والمخرجين للجوء إلى تمثيل تلك الشخصيات والأحداث المرتبطة بها منطلقيين من مجموعة مبررات.. أهمها:

أ - فقر أو ضعف المادة البصرية الوثائقية قياسا إلى غنى، أو قوة المادة المقدمة المتوفرة عن الشخصية والأحداث المتعلقة بها..

ب - الحاجة إلى كسر الإيقاع البصري في حال كون المادة الوثائقية ذات طبيعة جافة نسبيا، وتحتاج إلى عناصر جذب الانتباه وإثارة الاهتمام ..

ج - الحاجة إلى تجسيد الانفعالات الشخصية المرتبطة بسير الأحداث، مثل تجسيد انفعالات الجنود والقواعد خلال أحداث بعض المعارك الكبرى في تاريخ البشرية ..

وبمراقبة وتحليل عدد من الأفلام التسجيلية التي تعتمد هذا الأسلوب البصري تبين أنها تشتراك بالسمات العامة التالية:

أ - إن اللقطات التعويضية تدرج من حيث الصورة والحركة ضمن معايير اللقطات الدرامية بكل ما للدراما التلفزيونية من معنى ..

ب - يتلاقى هذا النوع من الأفلام الوثائقية مع الدراما فيما يعرف بـ الدراما الوثائقية التي تتناول أحداث واقعية، أو شخصيات حقيقة معروفة.. مثل الفيلم الذي يتحدث عن حياة صلاح الدين الأيوبي، والفيلم الذي يتحدث عن حياة عبد الناصر ... الخ.

ج - يختلف هذا النوع من الأفلام التسجيلية عن الدراما الوثائقية بغياب الحوار كلية أو غياب الصوت في أثناء الحوار الذي يحل عوضا عنه صوت المعلق المرافق للصورة، وينحصر ظهور الصوت بحالات تدرج تحت مفهوم المؤثر الصوتي .. مثل هتافات الجماهير .. وأصوات الآلات ... الخ.

د - يختلف هذا النوع من الأفلام أيضا عن الدراما الوثائقية بأسلوب استخدام الموسيقى التصويرية ..

ومع أن هذا المنحى يقدم مادة بصرية جذابة ومؤثرة، إلا أن بعض الباحثين لا يضعون هذا النوع من الأفلام ضمن نطاق ما يعرف بالأفلام التسجيلية .. وذلك من حيث إنه يدخل في نطاق التخييل مما يبعده عن الواقع الذي هو من أهم أسس تصنیف الأفلام التسجيلية ..

٤ - اللقطة المركبة: أي الجمع ضمن الكادر الواحد بين صورتين واقعيتين مختلفتين أو أكثر، أو بين صورة واقعية ومخطط توضيحي .. وهي مسألة تابعة لتقنيات المونتاج (الخطي، أو اللا خطى).. غالباً ما يتم اللجوء إلى هذا النوع من الصور في حالات المقارنة أو المقاربة ..

وأيا كان نوع اللقطة فإن الصور التلفزيونية عموماً تستمد أهميتها الكبيرة في أيامنا من كونها وسيلة مرئية للإمتناع البصري من جهة، ووسيلة بصرية للتأثير والإقناع من جهة أخرى .. ولا نبالغ هنا إذا قلنا بأن الصورة (كمثير حسي) هي الأكثر سهولة وجدو في نقل المعلومات، وترسيخها في الذاكرة .. لهذا لا بد من الحرص دائماً على أن تتمتع الصورة

بدرجة عالية من النقاء والوضوح، وهو أمر مرتبط بالمكونين الأساسيين لها، أي الخط واللون، فأي صورة ملونة ليست إلا تشكيلاً بصرياً مؤلفاً من تداخل متقن بين الخطوط والألوان .. وهذا ما يمكن توضيحه من خلال شرح المقصود بثنائية الخط واللون فيما يلي:

أ - الخطوط: وهي (بأنواعها المستقيمة والمنحنية والمتكسرة) التي ترسم الهيئة الشكلية المحددة للمادة بصرياً.. أي أنها تفصل بين مكونات الشكل كما تراه العين .. فإذا نظرنا مثلاً إلى وجه إنسان، فإننا نراه بصرياً، وندركه عقلياً من خلال الخطوط التي تحدد إطار الوجه، وشكل العين، والأذن، والفم ... الخ .. هذا ما تعبّر عنه مثلاً رسوم الوجوه المبدئية التي تُرسم بقلم رصاص .. كما في الشكل ٣ ..

(الشكل ٣)



استخدام الخطوط في رسم ملامح الوجه وإظهار البعد الثالث (العمق)

ولا بد هنا من الإيضاح بأن الخطوط التي ترسم الهيئة الشكلية للمادة التي نبصرها تتكون (تحت المجهر) من نقاط متاهية في الصغر.. وهي نقاط متراصة ومتتابعة بين بداية الخط المرسوم، ونهايته.. وهذا يمكن القول بأن وظيفة الخطوط والنقاط المكونة لها، لا تقتصر على تحديد الهيئة الشكلية المسطحة للمادة التي نبصرها، بل تتسع بصريا إلى حد إعطاء الشكل بعده الثالث (العمق).. أي أن العمق في الصورة ليس إلا تتابعاً لعدد كبير جداً من الخطوط المتراصة المتدرجة بين السواد والبياض (درجات الرمادي).. هذا ما تعبّر عنه مثلاً صور الوجوه بلا ألوان (أسود وأبيض) كما في الشكل ٣.. وبهذا المعنى تقدّم الخطوط المتدرجة والنقاط المكونة لها حلّاً بصرياً (منظوريّاً) للواقع الحقيقى ثلاثي الأبعاد الذي نريد تجسيده كصورة على السطح المستوى ذو البعدين فقط، والذي يتمثل فوتografياً بسطح الورقة أو اللوحة، ويتمثل تلفزيونياً بسطح الشاشة .. كما في الشكل ٤ ..

(الشكل ٤)



ب - الألوان: وتقوم بصريا بإكمال وظيفة الخطوط من حيث إبراز ملامح الشكل وبعده الثالث (العمق) .. وقد وصلت تقنيات إظهار الألوان في الصورة التلفزيونية أحيانا إلى حد تفوقها الجمالي على الواقع كما يظهر للعين المجردة .. وهذا ما يجعل الحديث عن ألوان الصورة التلفزيونية في أيامنا يتجاوز وظيفتها الابصارية ليشمل أمور في غاية الأهمية من حيث صياغة الذائقه البصرية الجماهيرية (إيجابا أو سلبا) .. وتستمد هذه الأمور أهميتها من سعة انتشار التلفزيون، ليس كوسيلة إعلام جماهيرية فحسب، بل باعتباره الوسيلة الأكثر انتشارا وتغللا في تفاصيل حياتنا الراهنة .. وهذا يعني من زاوية موضوع دراستنا المتعلقة بإنتاج الأفلام التسجيلية أن الألوان تقوم / إضافة إلى وظيفتها المكملة لوظيفة الخطوط / بوظيفتين أساسيتين هما:

١ - إن الألوان تجعل الصورة التلفزيونية أكثر قرباً من الواقع، وأكثر تعبيراً عنه من الناحية البصرية.. وهذا أمر في غاية الأهمية حين تتعلق الصورة بإنتاج الأفلام التسجيلية (تلفزيونية كانت أو سينمائية) ..

٢ - إن ألوان الصورة / المماثلة لألوان الواقع / تهيئ للعين بيئة بصرية مريحة وتضفي على الصورة التلفزيونية سحراً وجاذبية، مما يجعلها تحظى باهتمام وانتباه المشاهدين على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم العلمية والثقافية ..

ولأن آلية رؤية الصور وإدراكتها (بخطوطها وألوانها) ترتبط عند الإنسان بجهاز الإبصار الدقيق والمعقد فيزيولوجيا فانه من المفيد هنا التعريف المبسط بهذا الجهاز.. وذلك بتقسيمه إلى ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول هو العين: بكل مكوناتها الفيزيولوجية المتعلقة بالآلية الرؤية، والتي تشمل (كما في الشكل ٥) عدد من العناصر .. أهمها:

١ - **القرنية** Cornea: هي نسيج شفاف مقوس بشكل كروي تقوم بدور نافذة العين .. أي أول من يستقبل الضوء المنعكس عن الأجسام والأشياء، وهي عنصر التركيز الرئيسي للعين..

٢ - **القزحية** Iris: هي الجزء الملون المرئي الذي يعطي العين لونها الظاهر (أزرق أخضر عسلی أسود ... الخ) وهي الجزء الذي يوسع ويقلص الفتحة المركزية للعين (حسب شدة الإضاءة).

٣ - **الحدقة (البؤبؤ)** Pupil: هي الفتحة المركزية التي تسمح للضوء بالمرور إلى داخل العين.

٤ - **العدسة** Lens: هي القرص المرن الشفاف الذي يقع خلف الحدقة وهي محدبة الوجهين ..